التجمع العالمي لفرق السيدة – فاطيما 2018

التأمل الثالث

"لست أهلاً بعد ذلك لأن أدعى لك ابناً"

يلقي مثل الابن الضال أو الآب الرحيم (كما يفضل أن يسميه البعض) ضوءاً هاماً على العائلة، هذا المختبر الواسع للحياة والبناء. بالفعل، ما من عائلة تبقى ساكنة على مر الزمن. والسبب في ذلك أن العائلة ليست مجرد فكرة بل هي تملك ديناميكية الاختبار الواقعية والمضطربة. لاتنحصر العائلة في صورة جامدة بل هي تعيش عن طريق رسم وإعادة تشكيل ذاتها باستمرار. لنفكر في عائلتنا مثلاً. كم من أوقات مختلفة عشنا معاً، وكم من مراحل وفصول تقاسمنا! كانت هناك مراحل جيدة ومراحل صعبة، فصول صافية ملأى بالحماس وشتاءات متطلبة. وكانت هناك أوقات وجدنا فيها أنفسنا منتعشين وأوقات شعرنا فيها بالمعاناة فانعكس ذلك على الإيمان وحقيقة الحب. ومع أن الأبدي الذي سنعيشه ضعيف في بعض الأحيان، ولكن هذا لايقلّل من جماله.

حتى الأزمات تشكل جزءاً من مسار الحب، وهي وإن حملت البلبلة والألم فهي تشكل مناسبات أيضاً للغوص عميقاً في واقعها. والمهم في الأمر أن لا يصيبنا الإحباط. والمهم أن نفرّق بين المرحلة العابرة والطريق بمجمله. وحين تعاش تجارب الأزمات زوجياً وعائلياً، يمكن حتى أن تتحول إلى اختبارات لتقوية المشروع المشترك. وهي تفتح أمامنا أبعاداً من الحياة لم نكن قد صادفناها بعد، ولنعترف بأن هذا سهل حصوله. لنتذكر قصة الأصول التي يرويها سفر التكوين. حين سأل الله الإنسان "أين أنت؟" أجابه "سمعت صوتك في الجنة فخشيت، لأني عريان فاختبأت" (التكوين 3/ 9- 10). في الواقع أننا نستر عرينا حتى أمام من يحبوننا حباً فائقاً. نحن نخشى أن نكشف ضعفنا فنتقوقع على ذواتنا. بيد أنه في عيون من يحبوننا نستطيع أن نجد الأمل لنراجع إعاقاتنا وحدودنا وتناقضاتنا ولكي نستمد قوى جديدة. والأزمات هي التي تسمح في أغلب الأحيان بالإصغاء إلى الحياة متجاوزين ظواهرها الخارجية وبملامسة العطش الذي يستقر فينا.

أعتقد إذن بأن تغييراً سيحدث إذا ما قبلنا الواقع بأننا جميعنا ضعفاء. من السهل الرجوع إلى الصورة الجدلية ونسيان أن المعاناة تصيب الآخر أيضاً. يكون الحل بالاعتراف بوجود قيود وجروح لدى من يجرحنا (أو قد جرحنا). وإن هم لم يحبوننا كما نرغب فليس ذلك عن قصد بالضرورة بل قد يكون بسبب قصة أكثر غمّاً من قصتنا. لا نقول بتبرئة الآخر بل بالاعتراف بأنه يوجد في الآخر شخص قد بلغ حدود المعاناة، وبأن الإساءة التي تحرقني الآن لم تكن موجهة لي بالتحديد بل كانت كتلة من المعاناة الداخلية وصلت إلى حد الانفجار.

يذكّر مثل الابن الضال العائلات بأننا جميعنا بحاجة إلى المغفرة، ويجب أن نطلبها بكل صراحة مثلما فعل. في أحد لقاءات الأربعاء، تحدث البابا فرنسيس عن ثلاث كلمات يعتبرها "مفتاح نجاح العائلة" وهي "من فضلك" و "شكراً" و "عفواً". أجل، إنها كلمات بسيطة ولكن صعب تنفيذها. ولقد أوضح البابا هذه الكلمة الأخيرة : "حين تتلاشى القدرة على طلب المغفرة في العائلة، تزداد الشقوق الصغيرة اتساعاً، من دون قصد، إلى أن تصبح خنادق عميقة [...]. الاعتراف بالتقصير وبالرغبة في إعادة ما انتزع -الاحترام والصدق والحب- يجعل الإنسان جديراً بالمغفرة. وبهذا الشكل يلتئم الجرح. في البيت الذي لا طلب للمسامحة فيه، ينقص الهواء وتصبح المياه آسنة. والكثير من الإساءات إلى المشاعر والكثير من الاضطرابات في العائلات تبدأ مع فقدان هذه الكلمة النفيسة : "سامحني". كثيراً ما يتشاجر الأزواج في الحياة الزوجية، وقد "تتطاير

الصحون" أيضاً، ولكني أعطيكم نصيحة : لا تنهوا يومكم أبداً قبل أن تتوصلوا إلى السلام. أصغوا جيداً : تشاجرتما زوجاً وزوجة؟ أولاداً مع الأهل؟ حصل شجار كبير؟ هذا ليس حسناً، إنما المشكلة لا تكمن هنا. المشكلة هي في أن يظل هذا الشعور حاضراً في الغد."

نشكر الله على جميع هذه الأمور حيث تكفي كلمة "سامحني" أو غمزة عين أو ابتسامة أو ملاطفة. غير أنه توجد مواقف أكثر تعقيداً على غرار الموقف في المثل : "لست أهلاً بعد ذلك لأن أدعى لك ابناً". بدّد الابن الضال حصته من الميراث بأبشع طريقة ممكنة واستعاض عن روابط الحب الحقيقي مقابل بدائل باطلة... إنها إصابات لا تنسى. وكثيراً ما نسمع السؤال : "كيف يمكن أن أسامح إن لم أنسَ؟ لقد أصابت الإساءات عمق كياننا بحيث أنه حتى لو كانت لدينا رغبة شديدة في النسيان، لا نستطيع محو هذه التجربة من ذاكرتنا. إلا أنه يجب هدم السؤال الذي يربط بين المسامحة والنسيان. النسيان ليس شرطاً للمسامحة. نستطيع أن نسامح حتى ما لا يمكن نسيانه. ماهي المغفرة إذن؟ المغفرة هي فعل حب أحادي الجانب. ليست المغفرة إعطاء الآخر ما يستحقه لما فعله بل هي إعطاء الآخر ما في قلب الله. وبهذا التصرف، ندرك شيئاً فشيئاً بأننا أصبحنا أحراراً ومتجردين وبأننا لم نعد متعلقين بالإساءة التي حصلت. ليس بالضرورة أن يكون قلبنا بحراً متجمداً وقاسياً. إن حياة العائلة مكرسة للإزهار والانتعاش. ولقد خُلقت أعيننا المحِبة ليس لترى الغسق الرمادي بل السماوات الجديدة والأرض الجديدة.